الكتب

فتح العرب لمصر

تأليف الدكتور ألفرد . ج . بتلر

وتعريب محمد فريد أبو حديد

للأستاذ عبد الحميد العبادى

أستاذ التاريخ بكلية الآداب

سمعت أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد بك يقول مرة ما معناه : أنا الآن فى دور النقل والتعريب من حياتنا العلمية . وهو قول لا غبار عليه ، فان زمن الاقتصار على تراثنا العلمى والأدبى القديم قد انقضى منذ عهد بعيد ، وزمن الابتكار فى العلم والأدب لم يأت بعد ، وينبغى أن يتقدمه زمن نتوفر فيه على نقل أصول العلوم والفنون والآداب الغربية الى لغتنا العربية إقتداء بما فعل السلف الصالح فى صدر الدولة العباسية .

اننا بهذا التوفر نبث فى حياتنا العلمية روحا جديدا ، ونكسبها مادة جديدة وأسلوبا فى البحث والعرض العلمى جديدا . ونكون قد مهدنا للحياة العلمية المستقلة . وأعددنا لها أساسا قويا راسخا لا يخشى عليه من تطاول البنيان ومرور الزمان ، ونكون قد أدينا واجب العلم والوطن والانسانية جميعا .

لكن الترجمة الصحيحة عبء ثقيل مضن يقتضى كثيرا من الجهد والتضحية . فهى من ناحية المترجم تتطلب غزارة علم وأدب ، وأنكارا شديدا للذات ، يستعذب معه المترجم أن يكون أسيرا للمؤلف الذى ينقله . وقليل من الناس من يصبر على مثل هذا العناء . ثم هى تقتضى من ناحية الناشر ، وبخاصة فى بلدنا هذا ، أن يوطن نفسه على الخسارة المادية نصيبه مما ينشر . فاذا استطاع أن يخرج من الامر كفافا لا له ولا عليه فحسبه ذلك .

والناشر بعد تاجر يقيس قيمة الكتب بالفائدة المادية المرجوة منها ، فاذا يحمله على أن يعرض ماله للضياع ؟

من أجل ذلك كسدت سوق الترجمة فى بلدنا . وتأثرت حياتنا الأدبية بهذا الكساد تأثرا شديدا . حتى أصحت لا شرقية ولا غربية . ولا قديمة ولا حديثة . ولكن الحمد لله . فقد أخذت هذه الحال تؤذن بالتحول والزوال . وآية ذلك ما سمعه عن التفكير فى وضع قاموس عربى جديد يجمع شتات اللغة التى أصحت الى حد بعيد ضياعا غير مدونة . ومن آياته أيضا ما ترجم فى السنوات الأخيرة من غرر أدب الغرب وعلمه . نذكر من هذه الغرر على سبيل المثال : كتاب الجمهورية لأفلاطون . وكتاب الأخلاق ، وكتاب الكون والفساد ، ونظام الآثينيين لأرسطو ، وآلام فرتر لجوته . وفاوست له أيضا ، والشاهنامة للفردوسى . وأصل الأنواع لداروين . ثم كتاب فتح العرب لمصر ، وهو الذى سقنا هذه المقدمة تمهيدا للتعريف به أصلا وترجمة .

ألف كتاب (فتح العرب لمصر) منذ ثلاثين سنة بحاثة انجليزى هو الدكتور الفرد . ج . بتلر ، ونقله الى العربية منذ عام صديقنا الاستاذ محمد فريد أبو حديد ، ثم نشرته فى هذه الايام لجنتنا المباركة لجنة التأليف والترجمة والنشر . والكتاب يقع فى قرابة ستمائة صفحة مكبورة على ثلاثين فصلا وبضعة ملحقات . فى الفصول الاربعة الاولى يعرض المؤلف الحال السياسية العامة للدولة الرومانية فى أوائل القرن السابع الميلادى ويتكلم عن الثورة التى انتهت بأن أصبح هرقل عاهل الدولة المذكورة . وفى الفصل الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع يتكلم عن غزو الفرس الشام ومصر . فنهضة هرقل واسترداده الاقليمين المذكورين وعقده مع الفرس صلحا أعاد الى الروم شرفهم العسكرى . فاخذ الادبية للاسكندرية خاصة لذلك العهد . وفى الفصل العاشر والحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر يتكلم عن ظهور الاسلام . وفتح العرب الشام ومصر . واضطهاد قيرس البطريرك الملكانى للاقباط فى السنوات العشر السابقة على الفتح . ومن الفصل الرابع عشر إلى الثالث والعشرين يفصل المؤلف الكلام عن حوادث الفتح العربى لمصر . فيتكلم عن زحف عمرو بن العاص على مصر وبلوغه مدينة مصر ، فغزوة الفيوم ، فواقعة عين شمس ، فحصار حصن بابليون

وأخذه . فالزحف على الاسكندرية والاستيلاء عليها . فاخذ المدن الساحلية الشمالية . فاسها . السيادة الرومانية على مصر . ومن الفصل الرابع والعشرين الى الثلاثين يتكلم المؤلف كلاما ممتعاً موضوعه حال الاسكندرية وقت الفتح . ومكتبتها المشهورة . وحريق هذه المكتبة المنسوب الى عمرو . وغزو عمر لبرقة وطرابلس . والنظام الادارى الاسلامى الذى وضع لمصر عقب الفتح . ثم يتبع المؤلف هذه الفصول بملحقات حقق فيها . بصفة خاصة . شخصية المقوقس . والترتيب الزمنى لحوادث الفتح العربى . والكتاب الى جانب ذلك كله مزود بخرائط ورسوم تعين على فهم موضوعه .

من هذا العرض العام يتبين القارىء أن المؤلف قد أحاط بموضوع الفتح العربى لمصر أتم الإحاطة ، واستوعب وقائعه كل الاستيعاب . والحق أن الدكتور بتلر قد جلا موضوعا من أوعر موضوعات التاريخ الاسلامى ، وحل كثيرا من الغازه : أوضح شخصية المقوقس وكانت غامضة . ورتب حوادث الفتح ترتيبا أدنى الى الصحة منه فى أى مصدر قديم ، وأتى بالقول الفصل فى حريق مكتبة الاسكندرية . وبين وجه الخلاف القديم فى فتح مصر ، أصلحا كان أم عنوة ؟ على أن الكتاب يؤخذ بنقص جوهرى واحد . ذلك أن المؤلف عنى بالجانب السياسى والدينى فقط من حال مصر قبل الفتح وأغفل شئونها الإدارية والاقتصادية على ما كان لها من أثر قوى فى سهولة انتقال مصر من حكم الروم الى حكم العرب . ولقد ظهر فى هذا الموضوع فى العشرين سنة الاخيرة بحوث قيمة كنا نود لو أن الكتاب طبع طبعة ثانية تضمن نتائجها من هذه البحوث : «النظام العسكرى لمصر البيزنطية» لجان ماسبرو . و«الادارة المدنية لمصر البيزنطية» لجرمين روبارد .

ثم اننا لا نوافق المؤلف على تصويره لغارة عمرو على الفيوم ، فهو يرى أن عمرا عند ما بلغ رأس الدلتا ورأى قلة من معه من الجند ، وحرج موقفه بين جنود الروم جنوبا وشمالا ، أرسل الى الخليفة عمر بن الخطاب يستمده ، ورأى فى الوقت نفسه أن يشغل جنده ويستنقذهم من الخطر ريثما يصل المدد ، فتكلف عبور النيل الى شاطئه الغربى ، وأغار على الفيوم ثم عاد فعبر النيل ثانية ، فوجد المدد قد قدم من المدينة . لا شك أن هذه طريقة غريبة جدا فى الخلاص من المواقف العسكرية الحرجة . ثم هى لا تأتلف بحال مع ما عرف عن عمرو من شدة الدهاء وبعد المكيدة . يضاف الى ذلك أن المصادر العربية من حيث هذه الغزوة نوعان : نوع لا يعرفها بالمرة . ونوع يعرفها ، ولكنه يوردها على صورة تجعلها أقرب الى المعقول من الصورة المذكورة : ومع ذلك لم يعتمد عليها المؤلف واكتفى بمتابعة يوحنا النقيوسى بحجة أنه أقدم عهدا من كل المصادر العربية . ولكن القدم وحده لا يكون دائما دليلا على صحة المصادر التاريخية . كذلك يؤخذ على المؤلف حكمه فى الفصل الحادى عشر بأن غزوة تبوك المشهورة كانت فشلا ، لأنها لم تؤد الى ما كان الرسول يرمى اليه بها من مصادمة الروم . والحق أنها أدت الى ما كان النبى ﷺ يرمى اليه من شد سلطانه السياسى على شمال الحجاز . بقيت ملاحظة يسيرة : لقد توهم المؤلف ان مسيلمة المتنبى ظهر باليمن (ص ١٣١) والصحيح انه ظهر باليمامة .

ومع ذلك فهذه الملاحظات لا تنقص من قيمة الكتاب العلمية ، وحسب القارىء ان يعلم أن الدكتور بتلر قد أقام فى كتابه ، تاريخ الفتح العربى لمصر على أساس على متين ، وانه الى الآن لم يظهر فى ذلك الموضوع كتاب آخر يدانيه ، فضلا عن أن يفوقه

* *

أما الترجمة العربية لكتاب فتح العرب لمصر فأحب قبل كل شىء أن أهنىء صديقى فريدا على توفيقه فيها أخلص التهنئة . فقد جاءت صورة صادقة للاصل مطابقة له فقرة فقرة وجملة جملة . هذا مع سهولة العبارة وسلاستها ووضوحها . مما يشهد للاستاذ فريد بالبراعة فى صناعة الترجمة . ولكن ليت شعرى اى مترجم . ولو كان الاستاذ فريد نفسه . يترجم زهاء الستمائة صفحة ثم لا يهفو قلمه ولا ينحرف عن الاصل الذى ينقل عنه يمنة أو يسرة ؟ على هذا الاعتبار أهدى الى الاستاذ فريد هذه الملاحظات اليسيرة .

جاء فى صفحة ٢٥ هذه العبارة (النفر اليسير) وصوابها (الزر) بالزاى المعجمة . وفى صفحة ٢٧ عرب اسم المستشرق المشهور De goeje ب (دى جويجة) وصوابه (ده غويه) ووردت فى صفحة ٢٧ أيضا كلمة (المونوفيزية) وأحسن منها ان يقال (المذهب اليعقوبى) . وجاء فى صفحة ١٢٣ (هزيمة تبوك) بدلا من (فشل غزوة تبوك) وهو المقابل للاصل . وفى صفحة ٨٣ ترجمت Theology (بالفقه) وصوابها (اللاهوت) ، وجاء فى صفحة ٢١٨ (تبور الزبير الى الحصن) والصواب أن يحذف حرف الجر . وفى صفحة ٢٢٨ ترجمت Drawbridges ب (قناطر) وأصح من ذلك (جسور) لان العرف جرى بأطلاق اللفظ الاول على البناء الثابت الذى يعقد فوق الانهار وهو غير المراد من اللفظ الانجليزى . وجاء فى صفحة ٢٥٥ (وكانت سلحة المدينة) بدلا من (وكانت خامية المدينة) . وفى صفحة ٤٠٦ (وقال عنه النواوى) وصوابه (النووى) بدون ألف المد .

على ان هذه الملاحظات ايضا لا تضر الترجمة شيئا . واذا كان الكتاب مثالا يحتذى من حيث دقة البحث العلمى ، فترجمته العربية مثال ينسج على منواله من حيث أمانة النقل وصحة التعريب ؟